فكتور هوجو

قصة حبه الاول

ورسائل غرامه

كتب فكتور هوجو في ديوانه اوراق الخريف مخاطباً « رسائل غرامه » فقال :

يا رسائل الشباب والفضيلة والحبّ
هوذا انت. تليخفق فؤادي ثانية
مستحيباً، اذ اجثو لاقرأك .
ولأستعدّ عمرك ثانية ، فأعود
صالحاً وواعداً ، كما كنت مرةّ . ثم دعيني
أذرف الدمع لانني انقلبت غير ما كنت

كنت في الثامنة عشرة . ما أبهج أحلامي حينئذٍ !
كان الامل يغنّيني فيهز سريري كذباً وختلاً
وكان يتلألأ فوقي نجم لامع .
أما الآن فقلبي فقط يتنفس بذكرك
مع اني كنت حينئذٍ في منزلة ربّ لها. ولكن
الرجل الآن يذكر الطفل الذي كان .

يا زمان التأمل والقوة والرشاقة
كنت انتظر كل مساء حتى تمرّ بي ،
فأقبّل قفازها الواقع على الارض
كنت حينئذٍ آمل كلّ شيء من الحياة — الحب والشهرة والقوة
آه — ما السبيل لأعود تقيّاً غيوراً متسامياً
مؤمناً بكل ما هو تقيّ !

هذه الرسائل — رسائل الشباب والفضيلة والحب — مجموعة في كتاب يربي على مائتي صفحة. وكانت عروسة احلامه قد دمرت رسائلها اليه وانما احتفظت برسائله. تطالعها الآن فتطالع فيها عفة في عنف. وليونة في رزانة، إنها حافلة بآماله ومخاوفه، بأفراحه المتطلقة عفواً كأفراح الطفل وبإباء الخصام واساليبه يتلوها العفو والغفران!

يبدو لك وانت تقرؤها انها لم تكتب ليقرأها احد الا مليكة قلبه. فهو في غير رسالة منها يتوسل اليها ان تحرقها فتبنها الادبية في الكشف عن نفس هوجو، اعظم من رسائل تكتب والغرض منها النشر، لان نفس هوجو في رسائله هذه مطلقة على سجيتها. وقلما يتاح ان يُرى غراماً كهذا الغرام. يتفتح كالزهرة الطاهرة وينبجس كالنبع الصافي فتراه وهو يتفتح وترافقه وهو ينبجس مكشوفاً للعين في كل نور وفي كل غور

***

عرف فكتور اديل من ايام الطفولة لان صلة الجوار والصداقة كانت تربط اسرتي هوجو وفوشه، قبل ولادتهما. فنشأ اولاد الاسرتين وترعرعا معاً. وكانوا يتادون بعضهم بعضاً بضمير المفرد المخاطب. وهو بالفرنسية دليل على توثق الصلة ورفع الكلفة

وقد اشار فكتور هوجو الى انبثاق حبه الاول بالكلمات الآتية: ارى نفسي ثانية، فتى، تلميذ مدرسة، مرحاً لعوباً عادياً صارخاً مع اخوتي، في الممر المخضر في حديقة البيت الذي قضيت فيه ايام الحداثة. ثم يقول: «كنت لا ازال صبياً، ولكن الاحلام كانت تراودني، والشهوة تملأ أعطافي». والى جانبه كانت فتاة «نجلاء العينين، كثة الشعر، سمراء البشرة، حمراء الشفتين. موردة الخدين ...»

«وكانت امانا تقولان لنا انطلقا والعبا معاً. فكنا نتنزه قبل ان نلعب فكنا نفضل ان نتحدث. وكنا من عمر واحد ولكننا لم نكن من جنس واحد. ومع ذلك ظللنا مدى سنة اخرى، ونحن رفيقان، بل لقد جربنا غير مرة «ان تبين من منا اقوى من الآخر واصلب عوداً». خطفت منها مرة اكبر تفاحة في البستان. وصفعتها اخرى لما رفضت ان تعطيني عش عصفور. فأخذت تبكي فقلت: لا بأس لنذهب ونخبر والدتينا فتقولان ان كلينا اخطأ وكلتاهما تعتقد في قلبها ان ولدها كان على صواب»

«ولم يمض زمن طويل حتى صارت، اذا سرنا، تتكىء على ذراعي، فكنت احس بفخر عظيم. وينتابني شعور غريب. فكنا نمشي في رفق. ونتحدث في لطف. اسقطت منديلها مرة فلمسته فمست يدي يدها وشعرنا كلانا بهزة. فجعلت تتكلم عن العصافير، والنجوم في الفضاء، وحمرة الشفق وراء الاشجار، ورفيقاتها في المدرسة، وملابسها. فحدثتها حديثاً بريئاً عن امور عادية

ولكن خدود كلينا تورّدت لان الفتاة اصبحت صبية». وأديل تؤيد في ما كتبته رواية فكتور .

في اغسطس سنة ١٨١٨ اضطرت اسرة هوجو ان تنتقل من دارها ، لان معاش الوالد الجنرال ، كان لا يكفي ، لكي يحتفظ لزوجه وأولاده ، بدار لها حديقة . فانتقلت الاسرة الى شقة في الدور الثالث من شارع بتي اوغسطان رقم ١٨

وكانت مدام هوجو ، تذهب بعد العشاء ، تزور صديقتها مدام فوشه . وكان ابناها يرافقانها في بعض هذه الزيارات. ويقول بواب «أوتل ده تولوز» — حيث كان يقطن المسيو فوشه — انه كان يرى اوجين وفكتور هوجو مع والدتهما قادمين لزيارة اسرة فوشه . وكادت هذه الزيارة تكون رتيبة كل ليلة من ليالي الشتاء في سنتي ١٨١٨—١٨١٩

كان الضجر يخيّم على هذه السهرات في الغالب . فقد كان المسيو فوشه ضيقاً عليلاً ، فكان يأخذ كتبه وينتحي زاوية خاصة ، ويفضل ان لا تتناوله ثرثرة الحديث. وكانت مدام فوشه هادئة الطبع ، لا تميل الى الاستفاضة في الكلام لجلبت الصمت ديدنها رفقاً بزوجها . وكانت مدام هوجو نفسها تقطع عملها — الخياطة — فتأخذ قليلاً من النشوق وهو عمل كان المسيو فوشه نفسه لا يعف عنه . وكانت قد نبهت على ولديها اوجين وفكتور ان لا يتكلما الاّ اذا خوطبا

إلاّ أن هذه السهرات كان لها اثر خاص في نفس الفتى فكتور . كان اثراً مبهماً يتعذر حتى على من كان مثله بارعاً في استعادة الذكريات وتحليلها ، ان يحدده ويصفه . فكان اذا انتهى العشاء في داره ، كلفا بالاسراع الى منزل مدام فوشه . فاذا كان شقيقه اوجين متأخراً استعجله . وكان في الشارع لا يعجبه البطء في السير ، فاذا حال دون الذهاب الى « اوتل ده تولوز » حائل ما ، كانت الدنيا تسودّ في عينيه وتستولي الكآبة على نفسه

وهذه الرغبة في زيارة آل فوشه ، لم تكن كلفاً منه بمراقبة نار الموقد ، او البقاء جالساً على كرسي ساعتين متواليتين في غرفة يسودها الصمت ، ولا يقطع صمتها في الغالب الاّ عطاس امه والمسيو فوشه بعد تناول النشوق ، بل كان يكفيه ان يبقى المسيو فوشه مكبّاً على كتبه ، والوالدتان على عملهما ، لانه كان يستطيع حينئذ ، أن يحدق ، ويطيل التحديق ، في أديل

والراجح انهُ كان لا يدري ، ما هذا الشعور الذي كان يضطرب به صدرهُ ، ولكن احدى رسائله المكتوبة سنة ١٨٢٢ تعيّن لنا بالضبط اليوم الذي ازيح فيه الحائل الفاصل بين القلبين . كان ذلك يوم ٢٦ ابريل سنة ١٨١٩ وكان فكتور يومها في السابعة عشرة من عمره وأديل في السادسة عشرة

كانت أديل أجرأ من فكتور ، وأشد رغبة في الاستطلاع ، فرغبت وهي فتاة ، ان تتبيّن معنى هذا الغرام الصامت فقالت: « لا ريب عندي في انك تخفي أسراراً . أليس بينها سرٌ يفوقها

جيماً ؟ » فاعترف فكتور بأن عنده أسراراً وان احدها يفوقها جميعاً . فصاحت أديل : وهذا هو حالي : تعال . تعال الآن اطلعني على أهم أسرارك وأنا أطلعك على أهم أسراري. فقال فكتور: أهم أسراري اني أحبك . فرددت اديل وسرّي العظيم هو اني أحبك ، وكأن كلامها كان صدىً لكلامه

وكذلك تحطّم الجليد بينهما — على ما يقول الفرنجة — ولكن حبهما كان معتدلاً ؛ تكاتبا وقد باح أحدهما للآخر بمكنون قلبه، وقفا امام هول الحب وعظمته وقفة المتعبد في هيكل نغم

وقد قال فكتور في قصيدة يصف ذلك اليوم ، ان شفاههما الطاهرة لم تلفظ بعبارات الغرام وانهما ما كانا يملكان الا التفوّه بكلمة واحدة

***

تبادلا بعد ذلك بعض الرسائل أحياناً إلاّ أنها كانت في الغالب « قصيرة فاترة » ولكنّ هذه الرسائل لم تحفظ . ثم جاء الصيف ، وذهبت أسرة فوشه لتصطاف في إسي في ضواحي باريس . فكان ذلك باعثاً على الكآبة تستولي على نفس فكتور . وقد حاول عبثاً ان يقنع نفسه بأن المرحلة الى إسي كالمرحلة الى « أوتل ده تولوز » . ولكن الزيارات اليومية كانت متعذرة

فلما عاد الخريف عادت أسرة فوشه الى باريس، وكان الميل اللطيف قد تحول في صدر فكتور الى شعلة لا تنطفىء على ما قال في قصيدة له في أحد دواوينه[1] . بل ان الحبّ كان قد أخذ علك على فكتور كل ناحية من نواحي شعوره ، وتغلغل في كل جانب من جوانب حياته

وبعد عودة آل فوشه من إسّي في خريف سنة ١٨١٩ انتظم تبادل الرسائل بين فكتور واديل . وكان فكتور قد طرح التردد والجبن ، وأصبح عاشقاً جريئاً ، فصار يطلب الى اديل ان توافيهُ في مواعيد معينة وأماكن معينة ، فكانت تلبي طلبهُ . وكانت حديقة « الاوتل ده تولوز » احد اماكن الاجتماع ، فكانت اديل اذا غابت والدتها ، تتسلّل الى الحديقة لمقابلة فكتور المنتظر في « ظلال اشجار الكستناء » . او كانت اديل تذهب احياناً الى السوق بدلاً من والدتها وبعد ان تبتاع ماذهبت له ، تسرع الى مقابلة حبيبها في احد الشوارع الهادئة. ولما تحسّنت صحة المسيو فوشه صار يسرّهُ استقبال اصحابه في المساء، وكثيراً ما كان بين الزوّار صويحبات اديل واصحابها . فكان فكتور يجتمع باديل ويتحدث اليها ، ولكن الاجتماع كان بحكم الطبع قصيراً ، والحديث مقتضباً فكان لا بدّ من اتمام ذلك التبادل كتابة

***

لم تحفظ رسائل فكتور الاولى ولكنها في الراجح لا تختلف عن معظم الرسائل التي حفظت.

(1) Odes et Ballades

اننا نتبيّن في رسائله ، ان فكتور كان وهو في السابعة عشرة من العمر يفكر تفكير الرجال . فهو واثق بنفسه ، واثق بإخلاصه ، واثق بحبه وشرف اغراضه . ثم انهُ لا يرتاب اقل ارتياب ، في شجاعته وقيامه على عهد الوفاء . فاذا كان لا مفرَّ من الانتظار فانهُ ينتظر . واذا قامت في سبيلها العقبات ، فانهُ يتخطّاها . انهُ لا يسلّم بان هناك شيئاً مستحيلاً . وهو يحسب اديل زوجتهُ ، لذلك تراهُ يجرؤ على توقيع معظم رسائله اليها بكلمة « زوجك » . ولكن اديل لا تزال طفلة . هي ذكية الفؤاد ، نبيلة الشعور ، ولكن قلبها قلب طفل . انها بريئة ، حنونة ، فتردُّ على حبه الناضج حبًّا طفلا

ولكن الى اين يفضي حب صغيرين كفكتور واديل في سنهما وأحوالهما ؟ لا ريب في ان الوالدين يفصلون بينهما عندما يطوف الريب باذهانهم . لذلك اتفق الحبيبان ان يمتنعا عن تبادل الحديث الاَّ اذا كانا منفردين . وان يتظاهرا في حضور الناس ، بان احدهما لا يهمهُ الآخر ولا يعنى به

ولكن هذا التظاهر كان يؤلم اديل . كان فكتور لا يزال يطيع امه كأنهُ لا يزال في العاشرة من عمره ، وكانت هي تحسبهُ طفلاً فلم تتصوَّر انهُ في هذه السن يمكن ان يقع في شرك الغرام . الاَّ ان أم اديل كانت أقوى ملاحظة وأنفذ بصيرة من صاحبتها ، فظنت انها رأت غير مرة ، مايَنمُّ على تحاب اديل وفكتور ، ولكنها حسبت ذلك من نوازع الحداثة البريئة ومع ذلك لم تَنِ في مراقبة بنتها ، وفي توجيه الاسئلة اليها ، وتوبيخها احياناً ، وكان كل هذا يغم اديل ، فتبوح بغمها الى فكتور ، وأحياناً تلومه عليه او يتفجر طبعها الفاني بالتأنيب احياناً اخرى . ولكنها كانت ، اذا رأتهُ كئيباً كاسف البال وبدا عليه انهُ يظنُّ انها لا تحبه ، تسرع الى طلب العفو والغفران ، لانهُ كان كما قال في شعره في منزلة ربّ لها

ثم اخذت شهرته الشعرية تذيع ، وبدأ اسمه يلمع في سماء الادب فدعاه شاتوبريان « الطفل العلوي » ، وجعلت الصالونات الادبية تتحدث ببعض قصائده ، ومنحتهُ اكادمية الالعاب الزهرية في تولوز جائزتين من جوائزها الاولى على قصيدتين قدمهما اليها

ولما كانت رسائل فكتور التي كتبت سنة ١٨١٩ لم تحفظ ، فأول شاهد على حبه ، منطو في قصيدة له عنوانها « الزفرة الاولى » نظمت في شهر دسمبر من تلك السنة . فلما قدم هذه القصيدة الى اديل ، طالباً اليها ان تقرأها على حدة ، لأنها نظمت لها خاصة ، طفح كأس صباها بالغبطة . وكان في القصيدة كثير من انغام الحزن والقنوط . ولكنها قصيدة ما أجملها ، في نظر الفتاة . واذ تحدث الشاعر في قصيدته ، عن يوم مماته ، سأل اديل عما تجزي حبه ، ووفاءه فوعدته باثنتي عشرة قبلة !

ولكن هذه القصائد وهذه القبلات لم تلبث حتى اصبحت باعثاً من بواعث الكدر والازعاج

قلنا انهُ كان لاديل صويحبات، وليس من الطبيعي ان تتلقى فتاة قصيدة بارعة كتبت لها خاصة، من دون ان تريها لاحدى صويحباتها على الاقل، فاذا ارتها اياها، فكيف يسعها أن لا تقول ان فتاة القصيدة انما هي نفسها — اديل فوشيه، حبيبة الشاعر ؟! ولا ريب في ان احدى صويحباتها سألتها: ولكن هل تحبينهُ: فتجيب — أيسعني إلاَّ أحبه — وهل يحق لهُ بحبك — كيف أستطيع أن أخفيه. وعندها يرجح انها باحت لتلك الصويحبة بالقبلات التي دفعتها ثمناً لتلك القصيدة وجزاء لذلك الوفاء! فتصبح صاحبتها في شيء من الذعر

— ولكنه لا يسعهُ ان يحترمك ما زلت لا تحترمين نفسك

كانت أمها قد حذَّرتها من كل هذا فقالت لها: احذري يا بنتي، اذا قال لك رجل انهُ يحبك، وكنت على جانب من الضعف، فلا يمضي وقت طويل حتى يزول ما يكنهُ لك من الاحترام

أمضَّها الشك. هل التسليم بالحبّ يفضي الى فقدان احترام الحبيب؟ اذن حبيبها يحتقرها! وكيف تستطيع ان تصبر على احتقاره اياها؟ سألتهُ في ذلك، والألم يفطر قلبها «أصحيح انك تحتقرني؟ هل يمكن ان تحتقرني؟» فأنكر ذلك، واعترض عليه، وغضب في انكاره واحتجاجه، وجدَّد عهود الحب والوفاء، وأتى ببراهين حبه واخلاصه. ولكن الريب في ذهنها اصبح فكرة سائدة. وكثيراً ما تعود الى هذا الموضوع في رسائلها. نعم اننا لا نملك رسائلها، ولكننا نملك جوابات فكتور. كيف يستطيع ان يحتقرها؟ فليس الاحترام والاجلال كل ما في نفسه، بل هي العبادة! انهُ يحبها جاثياً. ومجرد تطويقها بذراعيه، والفوز منها بوعد بقبلة، هو كل ما يطلبه منها وهو كل سعادته. وقد كانت اديل جديرة بهذا. فقد كانت وهي في السادسة عشرة صبية بارعة الجمال، سمراء اللون، سوداء الشعر، مقتطرة الحواجب، دقيقة الانف فأقامها فكتور في هيكل افكاره على مذبح وجثا امامه عابداً متخشعاً. بل ان عبقريته الشعرية انحنت اجلالاً امام عبقريّ جمالها، بدعة وخشوع. قد تكون زوجه في المستقبل مع انهُ لايجرؤ على تصور هذا. ولكن اذا اصبحت زوج آخر، فانهُ يموت، لانه لا يتحمَّل ذلك. وفكرة الموت هذه، كانت برهاناً لهُ على حبه لها، ترسخت في ذهنه، وكثيراً ما رددها، في اشكال مختلفة في رسائل غرامه، وكان لها وقع عظيم في نفس حبيبته

وضع فكتور كلَّ شيء عند اقدام اديل او تحت اقدامها. فلست تجده يذكر في رسائله شيئاً من كتاباته، او ما اصابهُ من النجاح الادبي او شهرتهُ الآخذة في الذيوع، واذا اشار الى ذلك فانما يذكره لكي يؤكد لها، ان كل ذلك انما هو لاجلها، ولها، وانما هي صاحبة الوحي وينبوع الالهام. فالموضوع الوحيد الذي تدور عليه الرسائل هو هذا الحب — الحب دون غيره من الموضوعات، ولذلك سوف تبقى رسائل غرام هوجو مثالاً فذَّا نقيًّا للحب السامي